الفصل الثاني عشر[1]

حضارة بغداد

حضارة العرب في بغداد[2]:

أنضر أنواع الحكم العربي ولما استقلت تلك الدولتان بسرعة وفصلت بينهما المسافات عظيمة كان لهما أصل واحد ودين واحد ولغة واحدة؛ تقدمتا تقدماً متوازياً عدة قرون، وكانت المدينتان الكبيرتان بغداد وقرطبة هما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للإسلام من مراكز الحضارة التي أضاءت العالم بنورها الوهاج أيام كانت أوروبا غارقة في دياجير الهمجية.

ولم يلبث دور ازدهار حضارة العرب أن بدأ بعد أن فرغوا من فتوحهم وما بذلوا من الجهود في الوقائع الحربية في البداءة، وجهوا مثله إلى الآداب والعلوم والصناعة، فتقدموا في الفنون السلمية مثل تقدمهم في الفنون الحربية.

ورأينا أن دمشق أصبحت عاصمة دولة الأمويين العربية بعد المدينة، فلما قبض العباسيون على زمام الخلافة في سنة (١٣٢هـ- ٧٤٠م) عزموا على تبديل العاصمة؛ فأقاموا بالقرب من بابل وعلى شاطئ دجلة مدينة بغداد التي لم تلبث أن صارت أشهر مدن الشرق.

ولم يبق من المباني التي شادها الخلفاء في بغداد مثل ما بقي في سورية، ولكن ما إنتهى إلينا من آثار العرب في العلم والآدب في ذلك الدور وما ورد في كتب مؤرخيهم يكفي لتمثل حضارتهم في القرن التاسع من الميلاد وما نذكره الآن وما ندرسه في الفصول الآتية من تاريخ العلوم والفنون يلقي نوراً على ناحية مهمة من نواحي الحضارة العربية لم نوضحه في الفصل السابق.

بلغت ذروة الرخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد الشهير (٧٨٦م- ٨٠٩م). وإبنه المأمون (٨١٣م- ٨٣٣م)، وصارت أهم مدن الشرق وذاع صيت الرشيد وطبق الآفاق؛ فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رسلاً إلى بلاطه، وأرسل عاهل الغرب الحقيقي وصاحب الحول والشوكة الإمبراطور

---

(١) انظر، د. غوستان لوبون، مرجع سابق، ص١٧٠ وما بعدها.

(٢) حيث ما تكون كلمة عرب تعني بالطبع المسلمين في رأي.

شارلمان؛ الذي كان يملك ما بين المحيط الأطلنطي ونهر الألب وهو الذي لم يملك غير أناس من الهمج وفداً ليبلغ الرشيد أطيب تحياته ويلتمس منه الحماية لحجيج القدس؛ فأجابه الرشيد إلى سؤاله ورد إليه وفده مع هدايا عظيمة ومن بينها فيل مجهز بأفخر جهاز، والفيل كانت تجهله أوروبا تماماً ولآلئ وجواهر وحلى وعاج وعطور ونسائج حريرية وساعة دقاقة تدل على الوقت، وقد قضى إمبراطور الغرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته المتبربرون الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كنهها والذين حاول شارلمان عبثاً أن يحملهم على إحياء حضارة الرومان.

وجلس الرشيد على عرش الخلافة في الثالثة والعشرين من عمره، وكان تنظيم شئون دولته الواسعة أول ما فكر فيه فوصلت ولايات الدولة بوسائل نقل منظمة وأنشئت مرابط لتتمكن البرد بها من قطع المسافات الكبيرة على عجل، وعني بالحمام الزاجل لربط ما بين المدن بالرسائل كما هو واقع بين بعض المدن في الوقت الحاضر، وكانت إدارة البريد ببغداد من أهم وظائف الدولة كما في أوروبا الحديثة.

وكان الولاة على رأس الولايات، وكانوا يمتثلون أوامر الخليفة، وكان يقوم مقام الخليفة في الولايات النائية كشمال أفريقية أمراء وراثيون استقلوا مع الزمن استقلالاً تاماً.

وكانت مالية الدولة دقيقة الضبط، وكان دخل الدولة قائماً على الجزية والخراج والمكوس وإحياء الموات واستخراج المعادن، وروى مؤرخو العرب أن دخل الخلافة السنوي بلغ مئتي مليون فرنك أي مبلغاً عظيماً في ذلك الزمن.

وكان يقوم بأعمال الجباية لجنة تدعى الديوان، قال ابن خلدون: إن ديوان الأعمال والجبايات من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في أبنائها، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من

الحساب لا يقوم به المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسعى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها.

وكانت إدارة الدولة موزعة بين أربعة دواوين مماثلة لدواوين الزمن الحاضر، وهو ديوان الغنائم ونفقات الجند وديوان الضرائب وديوان الجباية وديوان رقابة الدخل والخرج. وكانت أوامر الخلفاء تكتب في سجل مصون ليرجع فيه من يأتون بعدهم.

وكان الوزير مرجع شئون الدولة الأعلى، وكان أكثر الخلفاء يتركون له مقاليد الحكم تماماً ويشابه منصبه في عصر الخلفاء منصب رئيس الوزراء في أيامنا.

ولم تكن الشرطة في عهد الخلفاء أقل انتظاماً من البريد والمالية وكانت للتجار نقابة مسؤولة لرقابة أمور البيع والشراء ومنع الغش والتدليس.

وكان انتظام مالية الخلفاء سبباً في القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير، كتعبيد الطرق وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافي والمدارس في جميع نواحي الدولة ولا سيما بغداد والبصرة والموصل.... إلخ.

واتسع نطاق الزراعة والصناعة واشتهر نبيذ شيراز وأصبهان، وصار يصدر إلى البلاد البعيدة، وأنشئت مصانع للنسائج الحريرية في الموصل وحلب ودمشق، وصار العرب يستغلون المالح ومناجم الكبريت والرخام والحديد والرصاص... إلخ بطرق فنية.

ووسعت دائرة التعليم العام واستدعى الأساتذة من مختلف أقطار العالم، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم وانتهى إلى نتائج لم ينته إليها الأوربيون إلا في العصر الحاضر كمقياس دائرة نصف النهار، ونقلت إلى اللغة العربية كتب علماء اليونان واللاتين ولا سيما كتب الفلسفة والرياضيات، وصارت تدرس في جميع المدارس وبحث العرب في آثار القدماء فسبقوا الأوربيين إلى ذلك ببضعة قرون.

وأقدم العرب على تلك المباحث التي لم يكن لهم عهد بها بشوق نشاط، وأكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان،

وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم كما سنرى ذلك في الفصول التي ندرس فيها تفاصيل حضارتهم.

وترى من الخلاصة السابقة أن العرب بلغوا درجة رفيعة من الثقافة بعد أن أتموا فتوحهم بزمن قصير، ولكن الإدارة الرشيدة والفنون المعقدة كالتعدين وطرز العمارة والعلوم كعلم الفلك إذ كانت مما لا يأتي عفوا لم يفعل العرب غير مواصلة الحضارات التي ظهرت قبلهم كالحضارة اليونانية اللاتينة، فكانت لهم مبتكرات فيما ورثوه من علومها وفنونها وطرق حكمها، وكانوا بذلك على نقيض الروم الذين سلموا العرب غير مواصلة الحضارات التي ظهرت قبلهم كالحضارة اليونانية اللاتينية؛ فكانت لهم مبتكرات فيما ورثوه من علومها وفنونها وطرق حكمها، وكانوا بذلك على نقيض الروم الذين سلموا العرب تراث تلك الحضارات من غير أن ينتفعوا به والذين سقطوا أسفل دركات الانحطاط.

وكان حب العرب للعلم عظيماً، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها، ومن ذلك أن شهر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد.

وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل ومن يونان وفرس وأقباط وكلدان، يتقاطرون إلى بغداد ويجعلون منها مركزاً للثقافة في الدنيا، وقال أبو الفرج عن المأمون أنه: كان يخلوا بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويستلذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم من صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده... فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم.

وكان أولئك يحيطون بخلفاء بغداد وكان يمكن هؤلاء الخلفاء أن يعدوا قصرهم أول قصور العالم وأنضرها، وتتجلي لنا أبهة بغداد الشرقية بالقول الآتي الذي وصف به المؤرخ العربي أبو الفداء استقبال أحد الخلفاء العباسيين لسفير قيصر الروم في سنة ٣٠٥هـ .

قال أبو الفداء: قدم رسل ملك الروم إلى بغداد، فلما استحضروا عبئت لهم العساكر وصفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة، وكان العساكر المصفوفون حينئذ مائة وألف وستين ألفاً ما بين راكب وواقف، ووقف الغلمان ذو الزينة الحجرية والمناطق المحلاة ووقف الخدام الخصيان كذلك وكانوا سبعة الآف، أربعة آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف خادم أسود، ووقف الحجاب كذلك وهم حينئذ سبعمائة حاجب وألقيت القوارب والزوارق في دجلة بأعظم زينة وزينت دار الخلافة فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر منها اثنتا عشر ألفاً وخمسمائة ستر من الديباج المذهب، وكانت البسط اثنتين وعشرين ألفاً، وكان هناك مائة سبع من سباع، وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصناً، وعلى الأغصان والقضبان والطيور والعصافير من الذهب والفضة، وكذلك أوراق الشجرة كانت من الذهب والفضة والأغصان تتمايل بحركات موضوعة والطيور تصفر بحركات مرتبة، وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه وأحضروا بين يدى المقتدر وصار الوزير يبلغ كلامهم إلى الخليفة، ويرد الجواب عن الخليفة.

وكانت قوة الخلفاء الحربية في بغداد تناسب أهمية دولتهم ويمكننا اجتلاء ما كانت عليه من الهيبة في الخارج بما أكره عليه قيصر بيزنطة الوارث لعظمة اليونان والرومان من دفع الجزية حين تمنع من إعطائها عبثاً، فلما رفض خليفة الإمبراطورية ايرين القيصر نيقفور إعطاء الجزية في كتاب أرسله إلى الخليفة هارون الرشيد؛ أجابه هارون الرشيد بالكتاب الموجز العنيف الدال على درجة الاحتقار الذي أضحى عرضة له أبناء اليونان والرومان الضعفاء وإليك: بسم الله الرحمن الرحيم من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافر، والجواب ما تراه لا ما تسمعه.

رأى (كلب الروم) الجواب فقد خرب هارون الرشيد بلاده تماماً وأرغم قيصر القسطنطينية النصراني على دفع الجزية إلى أمير المؤمنين.

ومن الإنصاف أن عد سلطان العرب السياسي في عصر الرشيد ابنه المأمون أقصى ما انتهي إليه سلطان العرب في الشرق، فقد كانت بلاد الصين حداً لدولة العرب في آسيا، ودحر العرب قبائل أفريقيا المتوحشة إلى حدود بلاد الحبشة ودحروا الروم إلي البسفور، ولم يقفوا في الغرب إلا عند المحيط الأطلنطي، والحق أن هؤلاء القوم الشجعان الذين لبوا دعوة محمد، وغدوا أمة واحدة، أقاموا دولة بلغت ما بلغته دولة الرومان من الاتساع في أقل من قرنين، وأن هذه الدولة بدت أكثر دول الأرض هيبة وتمدناً.

بيد أن مصير الدول الحربية العظمي المطلقة تابع لاقتدار ولاة أمورها، فإذا كان هؤلاء الولاة من العباقرة كهارون الرشيد وابنه المأمون أينعت تلك الدول وتقدمت، وإذا لم يكونوا أبناء بجدتها هبطت بسرعة أعظم من التي قامت بها.

ولم يكن كثيراً على أعاظم الرجال أن يحفظوا للخلافة هيبتها تجاه ما كان يبدو من تفرق كلمة العرب في أنحاء الدولة وتجاه الأمم التي دحروها حيناً من الزمن من غير أن يقوضوا أركانها، وقد استقل البربر بعيد استقلال الأندلس، وأخذ الترك يقبضون بدسائس على السلطة التي سينالوها كاملة بسلاحهم ذات يوم. ولم تخب شعلة الخلفاء العباسين إلا في القرن العاشر من الميلاد، ولكن الخلافة العباسية كانت قد خسرت سلطاتها منذ زمن طويل حينما غابت عن التاريخ.

لم يكن الترك الذين جئ بهم إلى بغداد من غير الأسرى أو الموالى الذين أعجبت الخلفاء قدودهم ففوض الخلفاء إليهم أمر حراستهم، ولم يلبث هؤلاء الموالي أن صنعوا كما صنع المماليك بمصر؛ فانفردوا بالأمر غير تاركين لسادتهم الخلفاء سوى سلطة إسمية.

ولم يقدر الخلفاء على مقاومة جميع المطامع التي كانت تحيط بهم فانقسمت دولتهم إلى إمارات مستقلة، فلما توارى آخر العباسيين عادت بغداد لا تستطيع الإدعاء بلقب آخر الملجأ الأول لعلوم الشرق وآدابه.

والمغول هم الذين قضوا على الخلافة العباسية، والمغول جيل من الأدميين البدويين يؤلف مع الترك عروقاً مختلفة نعد منها أجلاف هضبة آسيا الوسطى الواسعة التي لا تحدها الجبال الفاصلة لها عن سيبريا من الشمال، والتي تحدها الصين والتبت وبحر قزوين من الجنوب، ويرى علماء وصف الإنسان ولا سيما صديقي العالم الأستاذ دالي أن الترك والمغول والمماليك وأهل التبت على ما يحتمل من أصل واحد يدعى الأورمة المغولية، وظاهرة هذه الأورمة هي هيئة وجوهها الخاصة وجلودها المصفرة الكامدة وشعورها المسندرة[1].. إلخ، ولا نزال نجد شبهاً بين التركمان والمغول، ومثل هذا الشبه كان موجوداً في غابر القرون بين الترك الخلص والمغول، لا ريب فقد ذكر رشيد الدين في تاريخه عن المغول الذي ألفه في القرن الثالث عشر أن المغول والترك متشابهون تشابهاً يستوقف النظر، وإن اسم هذين الجبلين كان واحداً في غابر الأزمان.

ومن المستحيل أن ترى اليوم قرابة بين المغول وترك أوروبا، ويرجع ذلك لا ريب إلى تزوجهما في قرون كثيرة بناء من العرق القفقامي كالكرجيات والشركسيات والفارسيات على الخصوص.

واستولى المغول على بغداد سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) وخربوها تماماً وخنقوا آخر العباسيين المستعصم بالله بأمر رئيس الغالبين (هولاكو)، ونهبوا ما في بغداد من الأموال وحرقوا كتبها التي جمعها قبل هذه الكارثة الهائلة محبو العلم وألقوها في نهر دجلة، فتألف منها جسر كان يمكن الناس أن يمروا عليه رجالاً وركباناً، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها كما روى قطب الدين الحنفي، ولكن أولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار في المباني وأحرقوا الكتب وخربوا كل شئ نالته أيديهم خضعوا لسلطان حضارة المغلوبين بدورهم، (هولاكو) الذي خرب بغداد وأمر بجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره؛ فلم يلبث أن صار من حماتها، وفي المدرسة العربية تمدن المغول واعتنقوا دين العرب وحضارتهم، وشملوا متفنني العرب وعلماءهم برعايتهم وأقاموا في بلاد الهند

(١) المسندرة: المنبسطة.

دولة قوية عربية من فورهم، كما يمكن أن يقال وذلك لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة؛ ولأن سلطان العرب لا يزال مسيطراً هناك حتى اليوم.

أجل قامت بغداد من تحت الأنقاض، ولكن الترك استولوا عليها ثلاثة قرون فأصيبت بانحطاط تام فغابت عنها المكتبات ورجال الفن والعلماء إلى الأبد.

واليوم لا تزال بغداد مركزاً مهماً بفضل موقعها التجاري، ولكنها مدينة عصرية لا تجد فيها غير الأنقاض من مباني الخلفاء، وما يصادف فيها اليوم من الأبنية المتداعية على العموم حديث نسبياً وهو فارس أكثر منه عربياً قال مسيو فلاندان: تتوارى تحت طبقة كثيفة من الغبار أسس المباني، ولا تكاد تجد فيها أثر هارون الرشيد وزبيدة، وهنا وهناك يكتشف في بعض زوايا الأسواق، وعلى الشاطئ وبين أنقاض أضاعت اسمها وحوهُ جدران يقرأ عليها بصعوبة قطع من خطوط كوفية ومئذنة يشهد خرابها على قدمها وبقايا رتاج[1] ذي ميناء وذي فسيفساء لامعة تفصل على أساس البناء المحطم .

ولم يبال الترك بضياع هذه الأدلة على حضارة منافسة لحضارة بيزنطة، ونحن إذا ما استثنينا تلك البقايا النادرة المجردة من الفائدة معاً كان من العبث إزالة الغبار المتراكم ببغداد، فالحق أن هذه المدينة العظيمة لم يبق فيها ما يذكر بخلفائها الأعزاء كما يمكن أن يقال.

هذه هي حال بغداد اليوم، وقد لحقت بغداد الخلفاء في أعفار الماضي بطيبة وبابل ومنفيس وكل عاصمة كبيرة كانت سيدة الدنيا، ولكن هذه المدن لم تسيطر على العالم بغير السلاح، وخلفاء بغداد ملكوا العالم بحضارتهم على الخصوص.

ويجب لنحسن تقدير تلك الحضارة أن يخرج من دائرة الإجمال التي التزمناها في هذا الجزء من كتابنا، وأن ندخل دائرة التفصيل فندرس ما أسفرت عنه من العلوم والآداب والفنون والصناعة، وهذا ما نفعله في فصول

(١) الرتاج: الباب العظيم.

أخرى بعد أن تمت دراستنا المختصرة لتاريخ العرب في مختلف الأقطار التي استولوا عليها.

وكلما تقدمنا في الكتاب بدا لنا بوضوح أمران جوهريان لم نفعل غير الإشارة إليهما حتى الآن وهما: إن العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة جديدة مستعينين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان، وأن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها، وقد ظهر لنا أن جميع أمم الشرق الكثيرة التي ساعدت على قهر العرب ومنها الترك أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب، وأن أمماً قديمة قدم العالم كالمصريين والهنود اعتنقت ما جاءها به العرب وأورثتهم من الحضارة والدين واللغة.